الناس والظروف

قصة بقلم عادل آدم

الزملاء الذين سمعوا الخبر لم يصدقوه ..؟ وأخذوا يشوحون بأيديهم وكأنهم يستنكرون أعظم فرية قيلت في التاريخ ، وهزوا رؤوسهم يمينا ويسارا ومصمصوا بشفاههم مصدرين أعلى الاصوات علامة الشك وعدم التصديق ثم قالوا للذين نقلوا الخبر .

ـ حرام عليكم ... هذا كذب فاضح .

أما الذين رأوا الحدث بأنفسهم فكانوا أول من كذبوا أنفسهم واستبعدوا حدوث مثل هذا الامر وقالوا انهم رغم تأكدهم مما رأوا الا ان الامر مع ذلك بعيد عن التصديق بحيث انهم يعتقدون انهم لم يكونوا بوعيهم وقت ان رأوا ما رأوا .. هذا ما حدث في البداية ..، ولكن بعد ان أقسموا بالله العظيم ثلاثا وبكل المقدسات المعترف بها من كل الاديان ، وبعد ان استشهدوا بعدد من الناس ممن تقبل شهادتهم على الفور في مثل هذه الامور الدقيقة لحيازتهم وجوها متجهمة باستمرار .. صدق الذين سمعوا الخبر ولكنهم بقوا مع ذلك لا يستطيعون أن يدركوا كيف حدث مثل ذلك التطور العجيب ، ولا تكاد تمضي لحظات قصيرة حتى يضرب أحدهم كفا بالكف الاخر وهو يقول هازا رأسه ـ هل هذا ممكن؟! هل هذا ممكن ؟! وعلى الفور ينبري أحد الذين رأوا الحكاية قائلا بحماس غريب وصوته يتهدج وكأنه يمنع نفسه بصعوبة عن الضحك أو البكاء

ـ أنا ايضا لم أصدق .. رغم اني رأيته بعيني هاتين .. كنت سائرا والزملاء .. ولفت نظري ثوب فاقع لفتاة جميلة رشيقة تسير في الطريق كصفورة رقيقة .. ولاحظ الرفاق التفاتتي .. فانتبهوا ..

ويلتقط اخر حبل الحديث قائلا بزهو :

ـ بمجرد ان التفت صحت بهم .. انظروا .. ان الرجل الذي يسير معها يشبه الى حد كبير زميلنا أمين .. فهو يماثله في الطول.. وفي لحظات قليلة اكتشف علي أن لامين بذلة في هذا اللون الذي يرتديه رفيق الفتاة .. ولاحظ محمد أن له المشية نفسها ثم صحنا كلنا في وقت واحد وقد توقفنا عن السير مذهولين ونحن نتبادل النظرات وكأن كلا منا يريد التأكد أن زميله يرى عين ما يراه ، صحنا ـ انه هو .. انه امين ...

ويصرخ احد السامعين بدهشة خالصة ـ أمين ؟!.. زميلنا ؟!... هذا بعيد عن التصور ! ويستمر الاخر ـ نحن أيضا قلنا هذا .. ولكني عدوت بأقصى سرعة حتى صرت خلفهم مباشرة ولم يعد لدي أي شك من انه أمين .

ويصيح مستمع مرة اخرى ـ أمين !! ومعه امرأة !! من يصدق ؟

وكان من الممكن ان يستمروا في ذلك الحديث الى ما شاء الله من غير ان ينتبهوا الى مرور الوقت ، فالحكاية تبدو لهم غريبة ولذلك تجمعوا في ركن الغرفة وأحاطوا بمكتب الموظف الذي كان أول من رأى المرأة ذات الثوب الفاقع . كان يجلس بزهو كانسان يقدر قيمة الخبر الذي يحمله .. وقال فجأة وكأنه تذكر لفوره :

ـ انظروا .. ان الساعة قاربت العاشرة .. وزميلنا أمين لم يحضر الى عمله بعد.. ومكتبه كما ترون ايها الزملاء .. لقد بدأت الملفات تتكدس فوقه !

وفطن الجميع الى صحة قوله .. وقبل ان يقلبوا الموضوع في رؤوسهم .. اندفع امين داخلا وأشار بيده محييا اشارة مقتضبة وكأنه يضن برفع يده أو كأنه غير مقتنع بحكاية التحية هذه.

وتبادلوا النظرات صامتين ونظروا اليه بتطلع وكأنهم يبحثون عن بصمات المرأة على وجهه ويديه .. وخيم الصمت فترة على الحجرة وبدا الجميع وقد جرفهم الشوق لمعرفة تفاصيل اكثر .. ولكن لم يجرؤ واحد على الكلام ..

وبدت في فتحة الباب سيدة صغيرة تمسك بيديها عدة أوراق.. وقفت مترددة فترة ، لا تدري لاي مكتب تتجه ، ثم سألت اقرب موظف اليها بصوت خافت :

ـ الاستاذ أمين من فضلك ؟

وأشار لها بيده ناحيته فاتجهت اليه .. وعلى الفور التفتت كل الرؤوس ..

قالت له وهي تبتسم ابتسامة واسعة وكأنها تعرفه من سنين :

ـ صباح الخير يا أستاذ .

قال بجفاف ـ صباح الخير .. نعم .

صدمتها لهجته الجافة ولكنها تمالكت وأعادت الابتسامة الى وجهها وهي تقول مشيرة الى عدة اوراق في يدها :

ـ هل تتكرم بتوقيع هذه الاوراق .. لقد أخبروني ان الامر بيدك .. انك رجل ابن حلال ووجهك يوحي بالنبل والسماحة .

وبدا على وجهه الضيق وطرق المكتب بكفه وهو ينظر الى المرأة ببرود قائلا وهو يكاد يبصق الكلمات :

ـ كفى .. كفى .. أنا آخذ راتبا كاملا كل شهر لكي أوقع للناس أوراقهم .. فلا شيء يدعوك الى التزلف لاني لست بحاجة اليه .. كما أنك لست بحاجة الى الكذب فانت لا تعرفين أن كنت ابن حلال ام لا .. كما انه لا يوجد من يستطيع الجزم بأنه ابن حلال ، أما وجهي الذي يوحي بالسماحة فأنا أعرفه جيدا .. وأعلم أنه وجه متجهم دائما ...

وأخذ يوقع الاوراق ثم مد بها يده فاختطفتها المرأة وأسرعت منصرفة وهي لا تتمالك نفسها من الدهشة ..

وفكر الذين سمعوا الخبر .. انه لم يتغير .. انه كما هو .. وهز الذين رأوه رؤوسهم ولم ينبسوا ببنت شفة ..

ولما رأى الزملاء ينظرون اليه قال وهو يدافع عن نفسه :

ـ أنا لا أحب الكذب .. لا أحب ما يأتي بالصدفة .. لو أنها ذهبت الى زميل اخر .. أي زميل منكم لقالت له كل ما قالت لي .. فلماذا تقول أشياء لا تؤمن بها ولا تدري عن صدقها شيئا .. لانها محتاجة الي .. هذه قذارة .. رياء !

وصرخ أحد الموظفين بحنق ـ اذن تكرم بتحويل اوراق السيدات التي ترد اليك جميعها الي .. ولسوف أجنبك كل ما ترفضه كرامتك العزيزة .. ومشاعرك المرهفة ..

فقال ساخرا :

ـ وماذا تفيد من كلمة توجه لك وأنت تعلم أنها ليست لك بالذات.. ولكن لاي واحد يجلس على مكتبك ؟.. كلها مشاعر غير صادقة كلها كلمات زائفة ..

وزاد اخر ـ زائفة .. زائفة .. الحياة كلها زائفة .. ولكن .. ماذا أقول لك .. هذه ما يسمونها لباقة وذوقا ورقه .. من لي بكلمة رقيقة

من سيدة جميلة في مثل هذا العمر ..

والتقط أكبر الموظفين سنا الحديث قائلا لامين :

ـ أنت تجاب العداوات لنفسك .. انك تكسب كل يوم اكثر من عدو .. لماذا ؟.. هذه هي الحياة .. المجاملة شيء ضروري .. ليس هناك أرق ولا أجمل ولا أرخص من الكلمة الطيبة .. انك رفضت الكلمات الرقيقة التي وجهتها لك المرأة .. ومع ذلك .. فلا بد أنها خرجت وهي تلعن الساعة التي رأتك فيها .. فلماذا ..

ورد أمين وهو يعاني من شيء خانق :

ـ انني اشعر بشذوذي وغرابتي ولكن ضميري لا يحتمل ان أوجه لشخص كلمة مدح لا يستحقها أو ان أتلقى كلمة مدح ليس لي حق فيها.. كرامتي ترفض ذلك ..

كان يشعر بشيء من الود لذلك الزميل الكبير وكثيرا ما تبادلا الاحاديث منفردين .. وكان الوحيد الذي يعرف ان امين قد خطب لنفسه فتاة تسكن في حي مجاور .. لذلك .. حين أخذا طريق العودة بادره الرجل بالسؤال الذي ظل يطن في رأسه من الصباح ولا بد أنه كان يجول أيضا برؤوس الزملاء .. سأله ـ كيف حال خطيبتك ؟

ـ لقد انفصلنا ولم يعد بيني وبينها شيء ..

بهت الرجل وصاح ـ انفصلتما ؟!.. ولماذا ..

فقال ـ لقد كانت مخطوبة لرجل اخر قبل ان تعرفني.. وتركته.

ـ ولكن هذا لا يغير شيئا .. بل ربما كان من الواجب ان تحمد لها تفضيلها لك ..

فقال ـ ربما .. ولكن .. لقد اكتشفت ان ذلك الرجل خطيبها كان شبه عاطل .. ولم يكن دخله ليفي امرأة بالزواج .. ترى هل كانت لتتركه لو كان دخله اكبر من دخلي أو لو كان ذا مركز مثلي ..

ابتسم الرجل بحيرة ثم بدا أنه فطن الى ان لا محل هناك للابتسام فتجهم وجهه وهو يقول ـ هذا ليس سببا مقنعا .. كما انك لا تستطيع ان تحدد تماما ان كان هذا هو السبب .. ربما لم تكن تحبه واحبتك انت ...

قال وهو يهز رأسه ـ ربما .. ولكن الشك قد دخل قلبي وفي مثل هذه الظروف افضل ترك الفكرة كليا .

وظلا صامتين فترة ثم سأله :

ومتى حدث ذلك ؟

قال باهمال : ـ منذ مدة طويلة ..

فتوقف الرجل بغتة بطريقة ادهشت امين وقال :

ـ اذن من تلك التي كانت معك أمس ؟.

دهش أمين وقال خجلا

ـ هل رأيتني ؟.. انها عليه .. آخت زوجة شقيقي ابراهيم..أخت أمينة الصغرى.

نظر اليه الرجل بشك وحيرة وقال :

ـ وهل تحبها ؟

.. لم يجب على الفور .. ومط شفتيه قائلا والحروف تبدو مترددة بقدر ما هو متردد :

ـ أجل .. أحبها .

ـ وهي ؟.. أتحبك ؟..

فرد بالطريقة المحطوطة نفسها ـ أجل .. أعتقد ذلك ..

ـ ولم تكن مخطوبة لاحد من قبلك ؟

ـ لا ...

فزفر قائلا ـ اذن .. ليس هناك ما يمنعك من الزواج منها .

مضت فترة قبل ان يقول بصوت يائس :

ـ لا .. لا أعتقد انني سوف أتزوجها ...

ـ ولماذا ؟...

قال ـ لان أختها أمينة تكرهني ..

نظر الرجل بدهشة وقال :

ـ ومالك بأختها.. لتذهب أمينة الى الجحيم ما دامت عليه تحبك..

قال ـ لا أدري ماذا أقول لك .. ان أشياء غريبة تطوف بذهني واجد رأسي كمسرح لالاف الافكار والانفعالات .. حتى أنني أندهش لكثرتها وتباينها .. اسمع .. سأبسط لك ما يدور برأسي .. ان أخي ابراهيم متزوج من عليه .. وهو يحبها وهي أيضا تحبه .. انت معي؟.

ـ معك يا سيدي ، استمر ..

ـ أنا الاخ الاصغر لابراهيم .. ولاني غير متزوج فانا أقيم مع اخي في منزله ..

ـ أجل .. أعلم ذلك ..

واستطرد أمين متحمسا ـ عليه ماتت أمها فانتقلت للمعيشة مع أختها في منزل اخي .. هل أنت متتبع ؟.. أمينة متزوجة من ابراهيم وهي تحبه.. وأنا أمثل ما يشبه العالة على منزلها فهي لا تحبني وتكره وجودي.. وعليه ليست متزوجة وانا غير متزوج فهي تحبني وأنا أحبها.. انها تراني الوحيد الذي يناسبها .. انني المقعد الوحيد الخالي..

وزفر بشدة ثم قال :

ـ دعنا نفترض ان عليه هي الكبرى وبالتالي فهي زوجة ابراهيم.. وأمينة هي الصغرى .. فماذا كان يحدث .. كانت كرهتني عليه وأحبتني امينه .. او دعنا نفترض ان ابراهيم هو الاخ الاصغر لي .. أو أنه اختار عليه ولم يتزوج امينة .. هل تدري ماذا كان يحدث ؟.. كان يحدث ما قلته لك بالضبط .. ان تحبني امينه وتكرهني عليه .. واذا أردت الحق والواقع فان عليه لا تحبني ولا امينه تحب زوجها ولا احد في الواقع يحب على الاطلاق .. أليس كذلك ؟.. وهكذا يا صديقي ترى ان الظروف هي التي جعلتنا نقع في مثل هذه العلاقات المعقدة .. وانا لا احب مثل هذه الاشياء .. لا احب ما يقع بالصدفة .. ما تصنعه الظروف العمياء .. يا للغرابة .. لو ان ابراهيم تزوج عليه لكان علي ان أحب امينه ..

ولولا ان الرجل يعرف امين لتملكه الذعر .. ولكنه تمالك نفسه وظل فترة يحاول ان يعدل من المسألة داخل رأسه ولكنها كانت كشيء ممغنط يتخذ وضعا مقلوبا باستمرار .. وجاهد كي يعرف ما يعنيه زميله دون جدوى فصاح بضيق :

ـ هل عليه تحب آخاك ؟

صاح أمين ـ لا .. من قال ذلك ؟ انها تحبني أنا ..

آسف يا امين .. لقد انلت لساني .. أعني هل انت تحب امينه زوجة شقيقك ؟

ذعر أمين وصاح : ـ من قال أشياء كهذه !!! انني احب عليه .

صدر حديثا

الوجودية وحكمة الشعوب

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقاتها بالمجتمع والشعب وأثرها في الحياة عموما

دار الاداب — الثمن ١٧٥ قرشا لبنانيا

ـ اذن من التي يحبها أخوك ؟
ـ زوجته امينه طبعا .
ـ وهي .. أمينة هذه من تحب .. زوجها ابراهيم ؟
ـ بالطبع .. هل قلت ما يخالف ذلك بالله عليك ؟

فظل الرجل صامتا وهو يخشى ان يفتح فمه بكلمة فيزيد المسألة تعقيدا .. ونظر الى امين بما يشبه الخوف وقال :

ـ ما دام أخوك يحب زوجته وهي تبادله حبه .. وما دامت ، عليه تحبك وأنت تحبها .. فهل تتكرم وتوضح لي ما الذي يمنع زواجك من عليه ؟..

ضرب كفه بالاخرى وصاح ـ أنت لم تفهمني .. لم تفهم كلمة واحدة مما قلت !..

وأعاد له الشرح من البداية عدة مرات موضحا له نظريته في الناس والظروف .. وقال له أنه في الواقع لا يحب عليه ولا هي تحبه وانما هما مسوقان الى ذلك الحب بحكم الظروف ولو كان ابراهيم لم يتعرف بأمينه ولم يتزوج بها لما كان عرف بعليه هذه ولا سمع بها .. تصور !!..

وعرف اخيرا ان الرجل فهمه حين وجد فمه يفغر في دهشة وشبه ذعر .. ثم يصرخ قائلا :

ـ ما هذا .. يا الهي .. لكأنك كنت تخنقني .. ما هذا الكلام .. ماذا كنت تريد بالله عليك ؟ ان يحب أخوك عليه وان تحبك آمينه، لكي يمكن ان تشعر بأن هذا الحب حبحقيقي لم تخلقه الظروف ؟ .. ولكن الظروف هي صانعة كل شيء .. انها هي التي صنعت لقاءنا هذا وصنعت منك أخا لابراهيم .. هذه الظروف أسميها انا القدر .. ايه رأسي يدور ...

فقال امين بضيق ـ ولكن لو احبتني امينه لما كان هناك ادنى شك من صدق هذا الحب .. فانا لا امتاز عن اخي في شيء .. ولكن عليه حين تحبني تفضلني عن اخي لاني غير متزوج .. انها تحبني لذلك .. انها امسكت بورقة وقلم وحسبت الامر فوجدت ان حبها لي سيغمن لها الزواج مني .. اما حبها لاخي فسوف يجلب عليها غضب الجميع ويجر عليها من المشاكل ما لا يعد ولا يحصى .. وأمينة ايضا حسبت الامر فوجدت اني اكلفها بقضاء احتياجاتي بدون آي حق .. وكانت نتيجة الحسبة ان كرهتني .. انني آخدع نفسي لو أعتقدت ان عليه تحبني .. دعنا نفترض ..

فصاح الرجل مقاطعا ـ لا أرجوك .. لن نفترض شيئا .. كفانا ما سردت من افتراضات ..

بالطبع .. على الانسان ان يختار ما يلائمه وما يحقق له السعادة .. ومن حق كل فتاة ان تختار رجلها من بين الاخرين .. من تضمن ان يحقق لها السعادة .. كما انه من حق كل رجل ان يختار من تريحه وتسعده .. انت نفسك لم تحب امينة واحببت عليه .. وليس من الضروري ان نحطم تقاليدنا ومعتقداتنا لكي نثبت لك نزاهتنا يا سيد امين .. يا رجل كن طبيعيا .. عش حياتك ببساطة .. ان الفتاة تحبك وهذا شيء جميل ولا يمكن ان نلومها على ذلك .. ونحن ايضا لا يمكن ان نلوم اختها لبغضها لك فأنت في الواقع عالة على منزلها .. اترك لها المنزل وتزوج من حبيبتك واصنع لك منزلا ولا تفكر في نظرياتك هذه لو اردت ان تعيش كباقي الناس ..

قال وهو يفكر ـ هل .. ترى ذلك ؟..

فصاح الرجل ـ طبعا .. هذه هي الحياة .. انظر امامك ومارس حياتك ببساطة بلا فلسفة ولا تعمق ولا نظريات .. هيه .. ماذا قلت ؟..

ومضت فترة قبل ان يهز رأسه بشدة كشخص يتنفس الهواء بعد طول اختناق وهز رأسه بقوة وكأنه ينفض عن نفسه سيطرة شيء خارق وقال :

ـ لا .. لا .. لا أستطيع آن أخدع نفسي ..

القاهرة

عادل آدم

صدر حديثا

الشعوبية والقومية العربية

بقلم

عبد الهادي الفكيكي

دراسة مستفيضة عن محاولات الشعوبية في السياسة والفكر والادب لاضعاف الروح العربية ، وكيف صمدت القومية العربية في وجه الشعوبية في القديم والحديث .

منشورات دار الاداب

الثمن ١٥٠ قرشا لبنانيا